التقمص

لا يخفى ان الامم في حال بداوتها كانت تستفتح الموت ولا تفقه فيهِ معنى الفناء والاضمحلال التام بل لم تكن تفرق بين الموت والنوم والاغماء الّا ان الموت يستغرق من الوقت اكثر مما يستغرقهُ النوم والاغماء

واذا وثقنا بشهادة ابي التاريخ هيرودوتس يكون المصريون اقدم الشعوب اعتقاداً بالخلود واول القائلين ببدإ التقمص . ومن عقائدهم ان النفس عند الموت تدخل جسم حيوان ومن ثم تنتقل منهُ فتتخذ اشكال جميع الحيوانات الارضية التي تعوم في المياه وتدب على الارض وتطير في الهواء وتعود بعد تطوافها هذا المدة ثلاثة آلاف سنة الى جسد الانسان الذي خرجت منهُ . وقد انبأنا فلوطرخس عن اعتقاد المصريين بوجود سلطنة اخرى للموتى تسمّى امانتث يتسلط عليها اوزيرس تحت اسم سرابس ويؤيد هذا القول معظم النقوش المرسومة على توابيت الاجسام المحنطة . واذا تابعنا بورفيريوس نقول انهُ كان للمصريين ايضاً صلاة يرسلون بها الى الشمس والى غيرها من الالهة لتقبلهم بعد الموت مع جمهرة الالهة الخالدة

اما التقمص عند الهنود فعلى غير ما ذهب اليهِ المصريون واعتقدوهُ ذلك لان الهنود لم ينشغلوا انشغال المصريين بالمحسوسات بل انصرفوا الى المباحث النظرية ولذلك اتسموا مبدأ التقمص رداء روحياً فقالوا ان كل ما في العالم منبثق عن برهما وان الروح والجسد هما آخر ما ينبثق عنهُ وان اتحاد النفس بالجسد مسقوط من شأن النفس وحطة من مقامها الرفيع لان الشر يتطرق اليها من كل ما يلامسها من احوال هذه الدنيا واعمالها من الشعور والمسرات والآلام وتكون نهاية النفس ان تموت عن جميع هذه الاشياء وترتفع اخيراً بالتأملات وبالراحة المطلقة الى حضن الالهة حيث خرجت على ان وجود النفس في هذا العالم كان لتكفّر عما تكون قد ارتكبت في حياتٍ سابقة فاذا لم ترتدع وتأخذها الندم وتهذّب بالمعارف كما كان شأنها في الحياة الاولى يحكم عليها ان تمرّ من جسدٍ الى آخر بالتتابع من الاعلى الى ما دونهُ ومن ثمَّ يمكن الامر فترتفع من الادنى الى الاعلى على قدر ما تكون النفس عليهِ من حالتي الخير والشر . وهذه الاقوال تُعدها فلسفة فيثاغورس وتوجب تعاليم فاداتنا لا تكون النفس منبثقة عن برهما ولكنها جزء منهُ او هي كشرارةٍ من نار ملتهبة ليس لها ابتداء ولا انتهاء وما الموت والولادة الّا غريبان عنها ولا تستطيع عمل شيء الّا التردي ايامّا بالرداء الجسدي وهي مع هذه الحالة تلقى عذاباً مرًّا وتخبط خبط عشواء تلك الايام في ظلمات الجهل وتخضع لحالتي الفضيلة

والزيبلة وتربّ بالتتابع في جميع الاجسام من كل الموجودات الآلية من النبات حتى الانسان وليس لها ملجأ يتقدها من مخالب الألم ومواضع الهوان ويرجع بها الى حظيرة النفس العامة الاّ العلوم المقدسة . وهذه العلوم لا تقوم فقط بتجرد الانسان من كل ارادةٍ بل بتجرده ايضاً من كل عاطفةٍ ومن كل وجود ذاتي وبذلك تسرع بالرجوع الى الله كسرعة النهر في انحداره الى البحر

اما الفرس فخلاصة اعتقادهم مدوّنة في كتب الزندافستا المقدسة وهي انهُ في اواخر الايام يكون يوم الحساب فتجتمع نفوس الموتى وتعود الى الاجسام التي كانت لها قبل الموت وبعد مناقشة الحساب تذهب كل نفس وجسدها اما الى الفردوس ان كانت صالحة لتتمتع معهُ بالنعيم الدائم واما الى الجحيم ان كانت طالحة لتلقى معهُ عذاباً مرًّا على ان عذاب جهنم يعبر الخطاة ليصعدوا اخيرًا الى الفردوس حيث تكون الراحة والسعادة الابدية للروح والجسد معًا . وانك لتجد في هذا القول ذات المعنى الذي اعتنقهُ المصريون والهنود وان تراءى للناس في شكل جديد بين الاشكال التي ظهرت فيها هاتيك الآراء وذلك المعنى وهو ملازمة الروح للجسد بعد الموت ووقوع العذاب او نيل السعادة لهما معًا في العالم الثاني

ولقد روى البعض اخذًا عن التقليد ان مبدأ التقمص سار من مصر الى اليونان الاّ ان هذا الرأي لا ينطبق في شيء على مرويات التاريخ الذي انبأنا ان اليونان اعتنقوا التقمص وقالوا بهِ زمناً طويلاً قبل ان امّ مصر روّادهم وقبل ان اتصلت علائق الشعبين . وقد باحثين اراء غير هذه وادلة كثيرة تؤيد ان التقمص وطني في بلاد اليونان لم يفد اليها من مصر والهند لما في اقوال الامتين من التباين مما يحكم بعدم الصلة بينهما وان عقيدة كلٍّ منهما نشأة ارضها . وكيف كان اصل هذه العقيدة والبلاد التي صدرت منها فانا نعلم ان هذه الامة ابرزت مبدأ التقمص في شكل ينطبق على قرائح اهلها ويلائم حالهم من الحضارة والعرفان لاسيما وان فيثاغورس حاكهُ على منوال جديد اقصاهُ بهِ عن آراء حكماء الكهنة القائلين بتطواف النفس في جميع اجساد الموجودات والحاصرين تكيفاتها ضمن الحياة الحيوانية ولا حكم عليها حكم كهان المصريين في وجوب دخولها في اول جسم تلقاهُ عرضاً بعد فراقها الجسد بل جعل لذلك الاتحاد شروط الموافقة وحكم بوجوب المطابقة بين النفس والجسد الذي تتقمص فيهِ وقال ان الاشقياء يتيهون في قفار الترتر حيث ترتعد فرائصهم وتهلع قلوبهم لاستمرار قصف الصواعق ودوام دويها وعكس ذلك الصالحون يقيمون في اعلى مكان من العالم يتمتعون فيهِ بالسعادة والنعيم

واتبع افلاطون خطة فيثاغورس وحاول ادعامها بالادلة التي ترفع بها الى مقام التقريرات الفلسفية ووافق فيثاغورس برجوع النفس الى الحياة بعد الموت وانها في تضاعيف تلك المدة تقوم في جهنم زهاء الف عام . ولم يذكر الخلود في عرض الكلام عن مبدإ التقمص الذي اتبع فيه سنة التقليد ولكنهُ ابلغ في خلال ذلك الى ان الخلود الروحي مخصص للفلاسفة دون سواهم ومع ذلك لم يتبع مذهب فيثاغورس القائل ان نفوس الحكماء تستغرق في الله وتعيش معهُ وتشاركهُ في ثباتهِ وسعادتهِ وحكمتهِ

والقول بالتقمص لم يمت لموت افلاطون وانما جرى على سنة الارتقاء فازداد اتساعاً وهم انتشاراً حتى اراد زعماء مدرسة الاسكندرية مزج الفلسفة اليونانية بالتعاليم الشرقية . اشير بما كتبهُ بورفيريس الصوري في هذا المعنى وما قالهُ مأخوذاً عن اليونان من ان النفس وجدت في عالم سابق وانها ارتكبت هنالك من المنكرات ما أوجب عليها اتخاذ لباسها الجسدي في هذا العالم تكفيراً لسيئاتها السابقة . الاَّ انهُ لم يذكر شيئاً عن دخولها في اجسام الحيوانات الاخرى

واليك رأياً آخر في التقمص وضعهُ اهل التقليد (القابلون) من اليهود قالوا ان النفس كثيرها من الخلائق في هذا العالم من خصائصها الرجوع الى الجوهر الاَلهي ولكي يتم لها هذا الرجوع يجب عليها ممارسة كل الكمالات التي تكون يزورها موجودة فيها بطبيعتها واذا لم يتهيأ لها استيفاء هذه الشرائط في الحياة الاولى فانها تقوم بها في حياة ثانية ومن ثم يليها حياة ثالثة لها شؤون ووسائل جديدة لتحصيل ما فاتها من الفضائل ايَّان الحياتين السابقتين على ان هذا المتنى تقصر مدتهُ حين تنال كفايتها من التطهير وممارسة الفضائل وتصلح لاتحادها مع الله . وهنا نرى جماعة اهل التقليد اتبعوا رأي بورفيريس في حصر التقمص ضمن الحياة الانسانية

وشاع هذا الرأي عند الاسرائيليين فاعتقدوهُ مع الاعتقاد بقيامة الموتى وقالوا بهما زمناً طويلاً وسار منهم الى النصارى مع خلو المسيحية وتعاليم الكتبة من اثباه هذه العقائد ولكنها اتصلت بجماعة من النصارى من تعاليم اليهود والوثنيين يؤيد ذلك رسالة القديس ايرونيموس الى ديمتريادس حيث قال فيها ان مبدأ استحالة النفوس ظلَّ زمناً طويلاً يعتقد بهِ النصارى الاولون وان اذريانوس بسط هذا المبدأ في كتاباتهِ وفسَّر بهِ بعض آيات التوراة من مثل عراك يعقوب وعيسو قبل ولادتهما واختيار ارميا وهو في بطن امهِ وغير ذلك مما اوَّلهُ بوجود النفس في عالم سابق لعالمنا . وفوق هذا ان نفراً من الكهنة الاسكندريين ادخلوا مبدأ التقمص في تفسيرهم لسفر التكوين اذ قالوا ان الله لم يخلق العالم لاظهار قوتهِ وتمجيد اسمهِ وانما قصاصاً للنفوس التي اخطأت في السماء

وجملة القول ان الاعتقاد بمبدإ التقمص وجد عند كل الامم القديمة ويكن وجوده كان تابعاً لحالة الامة من الحضارة والعرفان فنراه عند اليونان والهنود والفرس وغيرهم من الامم الراقية قد اتخذ الشكل الفلسفي وعند غيرهم من الشعوب الضاربة في البداوة مجرداً عن المبادىء النظرية يتخللهُ من الاساطير الواهية والحكايات الموضوعة ما ينطبق على عقول تلك الاقوام . اعني بذلك باعتقادات العرب في التقمص زمن الجاهلية فقد قالوا بهِ في ابسط وجوههِ من مثل حكاية الهامة فكانوا يقولون ليس من ميت يموت ولا قتيل يقتل الاَّ ويخرج من رأسهِ هامة فان كان قتل ولم يؤخذ بثأرهِ نادت الهامة على قبرهِ اسقوني فاني صدئة . وورد في مروج الذهب للمسعودي ان من العرب من يزعم ان النفس طائر ينبسط في الجسم فاذا مات الانسان او قتل لم يزل يطير بهِ مستوحشاً يصدح على قبرهِ ويزعمون ان هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم وهو ابداً مستوحش و يوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور وانها لم تزل عند الميت وتخلفهُ لتعلم ما يكون بعدهُ فتخبرهُ اه قال مضلس الفقعسي

وان اخاكم قد عجلت مكانهُ بسفح قبا تسقى عليه الاعاصرُ
لهُ هامة تدعو اذا الليل جنها بني عامر هل للهلالي ثائرُ

ولهم حكاية اخرى في التقمص وهي البلية اي الناقة التي تعقل عند قبر صاحبها ليحشر عليها راكباً وكان اذا مات منهم كريمٌ بلوا ناقتهُ او بعيرهُ فتركوا عقلها وادارو رأسها الى مؤخرها وتركوها في حفرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت وربما احرقت بعد موتها وربما سلخت وملئ جلدها تماماً وكانوا يزعمون ان من مات ولم يبل عليهِ حشر ماشياً قال بعضهم

ولعل لي مما جمعت مطية في الحشر اركبها اذا قيل اركبوا

وقال آخر يوصي ابنهُ

ابنيَّ زودني اذا فارقتني في القبر راحلةً برحل فاخرِ
للبعث اركبها اذا قيل اظعنوا مسترسلين معاً لحشر الحاشرِ

وقال عوير الشيباني

ابنيَّ لا تنسَ البلية انها لابيك يوم نشوره مركوبُ

وكما اخذت الفلسفات والاديان في الارتقاء والتمو اخذ العقل في الاعتلاء عن السفاسف والخرعبلات واخذ مبدأ التقمص في التقلص والانمحاء والظهور في شكل روحي اخر كما سبق الايماء

الاّ ان القول بالتقمص على اشكاله المختلفة عند الامم القديمة لا يضاد المبدأ الروحي وانما يعززه حيث ان من مبادئه التقمص الاساسية الفصل بين الروح والجسد والحكم على الجسد بالانحلال وعلى الروح بالخلود وابقاء ولم يشوه ذاتية النفس بشيء بل ميزها عن سائر المخلوقات بخصائص حرية الارادة وانها مسؤولة عن اعمالها م . ن

الحروب ومعدلاتها

اجتمع نوّاب الدول في مؤتمر السلم هذا الصيف وكأنهم في مؤتمر الحرب لانهم لم يتفقوا الاّ على ما يجب فعلهُ زمن الحروب ممّا يدفع الخسارة عن اهل التجارة . ولا يزال المتفقون من الحروب ومعدلاتها ينادون ان الاستعداد للحرب انفى لها . يداوون العلّة بمثلها على حد قول ابي الطيب " وربما صحّت الاجسام بالعلل "

وقفنا منذ شهر من الزمان في معمل ارمسترنج في نيوكاسل حيث تصنع المدافع الكبيرة وسائر ادوات البوارج الحربيّة ورأينا الوف العمال يرسمون ويسبكون ويخرطون ويثقبون وهم خمسة آلاف عامل لا تقلّ اجورهم عن الف جنيه في اليوم يعملون في معمل مساحة سطحهِ اربعون فدانًا ولا يقلّ ربح الاموال التي أنفقت على تشييده عن الف جنيه اخرى في اليوم . فهذه الفا جنيه تنفقها شركة ارمسترنج كل يوم سواء عملت او لم تعمل . أفلا تبذل كل مرتخص وغالٍ على ترويج بضاعتها لكي تكتسب ما يقوم بهذه النفقات ويزيد عليها . وقس على ذلك كل صانعي الاسلحة وملابس الجنود والقوّاد والضباط وكل المتنفعين من الحروب وتعبئة الجنود فان كل هؤلاء سبيلهم الحث على الاستعداد للحرب . ويلزم او يأتي قبلهم الذين يدبّرون الاموال للمالك لكي تنفقها في حروبها ثم تعطيهم رباها مسانهةً فيعيشون بالراحة والرفاهة واموالهم تدرّ عليهم مايكفيهم ويزيد

انشأ بعضهم مقالة مسهبة في المجلة العسكريّة المعروفة باسم " يونيتد سرفس " طالعناها ونحن راجعون من اوربا في الشهر الماضي وقد بيّن كاتبها ان انكلترا خسرت في حروبها في مئة سنة منذ سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٩٠٢ سبع مئة الف نفس ونحو ١٢٦٣ مليون جنيه كما ترى في هذا الجدول

حروب نبوليون	من سنة ١٧٩٣ —	١٨١٥	خسرتها ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه
حروب بريما الاولى	» » ١٨٢٤ —	١٨٢٦	» ١٢٠٠٠٠٠٠٠ »
حرب انكفرة الاولى	» » ١٨٣٤ —	١٨٣٦	» ٨٠٠٠٠٠٠٠ »